الباب الثاني

في الغـيب

تمهيد في مفهوم الغيب

الفصل الأول: قيمة الغيب

الفصل الثاني: في سعة عالم الغيب

الفصل الثالث: الغيب بين الوحي والعقل

الفصل الرابع: بعض مظاهر وأسباب قصور العقل

الفصل الخامس: نماذج من عوالم الغيب

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22]

تمهيد في مفهوم الغيب

قيلت في تعريف الغيب أقوال كثيرة، مختلفة ولكنها متكاملة. فالغيب ـ في نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 2] هو الله تعالى، لأنه لا يُرى في دار الدنيا، وإنما ترى آياته الدالة عليه[1]. وقيل: الغيب هو الآخرة، والشهادة هي الدنيا[2]، كما في قوله سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: 73] وقيل: الغيب والشهادة هما عالما السر والعلانية، أو ما كان وما يكون[3]. وقيل أيضاً: الغيب ما غاب عن الناس مما أخبرهم به النبي ﷺ من الملائكة والجنة والنار والحساب. وقيل: هو القرآن، أو هو القضاء والقدر[4].

وقيل أيضاً: الغيب ما كان غائباً عن العيون، وإن كان محصلاً في القلوب[5]. قال ابن كثير: كل هذه متقاربة في معنى واحد، لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به[6].

---

(1) الفيروزآبادي. **بصائر ذوي التمييز**، 4/ 152، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. بصيرة في غيب.

(2) ابن عطية. **المحرر الوجيز**، 13/ 32، السجدة 6. الزمخشري. **الكشاف**، 4/ 87، آخر الحشر. السمرقندي. **بحر العلوم**، 3/ 346، النجم 33.

(3) القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، 18/ 30. **الحشر** 22. الماوردي. **نكت العيون**، 6/ 122، الجن 26.

(4) القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، 1/ 115؛ الخازن. **لباب التأويل**، 1/ 26.

(5) الفيروزآبادي. **بصائر ذوي التمييز**، مرجع سابق، 4/ 152.

(6) تفسيره، 1/ 57.

وقد جمع عبد الله بن عباس هذه المعاني كلها، فقال: الغيب كل ما أُمرتَ بالإيمان به فيما غاب عن بصرك، مثل الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان...[1] وقال الطبري ـ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ـ: «آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت، فهذا غيب كله. وأصل الغيب كل ما غاب عنك من شيء، وهو من قولك: غاب فلان يغيب غيباً»[2].

فالفارق بين عالمي الغيب والشهادة هو الحس، إذ كل ما غاب عن العباد، مما لا يعلمونه ولا يحسون به ولا يدركونه... فهو غيب. وكل ما علموه أو حضروه أو أدركوه فهو من عالم الشهادة[3]. قال الطاهر ابن عاشور: «المراد بالغيب ما لايدرك بالحواس مما أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنه واقع أو سيقع، مثل وجود الله وصفاته ووجود الملائكة والشياطين وأشراط الساعة، ومما استأثر الله بعلمه»[4]. ولذلك ليس الغيب هو ما يقابل الواقع، لأن الغيب أيضاً واقع. وليس هو ـ كما قال بعض المفسرين[5] ـ المعدوم، وعالم الشهادة الموجود. فكلاهما عالم قائم موجود، وإنما يعرف الإنسان الثاني ويجهل الأول. وذلك أن «الوجود الإلهي الأعلى من عالم الغيب، وآثاره في خلقه من عالم الشهادة»[6].

---

(1) ابن كثير. **تفسير ابن كثير**، 1/ 62. البقرة 2. الخازن. **لباب التأويل**، مرجع سابق، 1/ 26.

(2) الطبري. **جامع البيان**، 1/ 77.

(3) كذا يتحصل من تعاريف الغيب والشهادة في التفاسير الآتية: الزمخشري. **الكشاف**، 4/ 87، آخر سورة الحشر؛ السمرقندي. **بحر العلوم**، 3/ 31، السجدة آية رقم 6؛ الخازن. **لباب التأويل** 4/ 6، الرعد 9-10. و 5/ 184، السجدة 6؛ ابن عطية. **المحرر الوجيز**، 1/ 423، الرعد 9-10؛ الجادي. **مراح لبيد**، 1/ 246، الأنعام 73؛ أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**، 5/ 154-155، التغابن 18.

(4) ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، 1/ 229، البقرة 2.

(5) راجع: **الكشاف**، 4/ 87، الحشر 22؛ الخازن. **لباب التأويل**، 4/ 6، الرعد 9-10؛ أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**، 5/ 155، التغابن 18... وإن كان هؤلاء المفسرون يعنون بكون الغيب معدوماً بالنسبة إلى الإنسان، فهو حين يجهل وجود الشيء يكون كالمعدوم عنده وبحسب علمه.

(6) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، 1/ 272، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

فالإيمان بالغيب ـ كما يقول المودودي ـ «معناه أن ترجع في معرفة ما لا تعرفه إلى من يعرفه. ثم تصدقه في قوله: إنك لاتعرف ذات الله تعالى ولا صفاته، ولاتعلم أن ملائكته يسيِّرون شؤون الكون بأمره، ويحيطون بالناس من كل جهة. ولا تعرف ما هو الطريق الصحيح لقضاء الحياة وفقاً لمرضاته تعالى، ولا علم لك بالحياة الآخرة وما يحصل فيها للعباد. فجميع هذه الأمور وأمثالها إنما تَنال علمها عن رجل تطمئن إلى صدقه وعفافه وتقواه في جميع شؤون حياته، وتختبره في أعماله النزيهة وأقواله الحكيمة، فتسلم بأنه لا يقول إلا الحق، وأن جميع أقواله جديرة بأن تقبلها وتؤمن بها»[1].

ولذلك مدح الله تعالى المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيبيات، وهم لم يشاهدوها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 49]. وفسر ذلك ابن عطية قائلا: «قوله تعالى: بالغيب، يحتمل ثلاث تأويلات. أحدها: في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد، وهذا أرجحها. والثاني: أنهم يخشون الله تعالى، على أن أمره تعالى غائب، وإنما استدلوا بدلائل، لا بمشاهدة. والثالث: أنهم يخشون الله ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم. والإشفاق أشد الخشية، والساعة القيامة»[2]. وقال القرطبي: «(بالغيب)، أي غائبين لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس»[3].

وذكر القرطبي أيضاً ـ في قوله جل شأنه: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 33] أن «الخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب»[4].

---

(1) المودودي، أبو الأعلى. **مبادئ الإسلام**، ص 31، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978.

(2) ابن عطية. **المحرر الوجيز**، مرجع سابق، 11/ 141. وقارن بـ: الرازي. **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، 22/ 180.

(3) القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، 11/ 195.

(4) المرجع السابق، 17/ 15؛ وانظر في المعنى نفسه: **جامع البيان**، 7/ 25؛ أبو السعود. **الإرشاد**، 3/ 77؛ ابن عطية. **المحرر الوجيز**، 13 /190، يس 11، و 15/ 186، =

وهذا الاعتقاد في عوالم الغيب التي لا نشاهدها هو المسمى بـ: الإيمان. فأصل هذا اللفظ في اللغة هو مطلق التصديق، وفي الاصطلاح: التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة، فتفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً. ثم إن هذا التصديق يمتد إلى الإقرار اللفظي بهذه الاعتقادات، وإلى العمل بمقتضياتها.[1]

ويحكي بعض التابعين أنهم كانوا عند عبد الله بن مسعود، قال: فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقونا به. فقال عبد الله: إن أمر محمد كان بيِّنا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 1 ـ 4][2]. ومصداق هذا ما رواه عمر بن الخطاب، قال: كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أتدرون أي الخلق أفضل إيمانا؟ قلنا: الملائكة، قال: وحق لهم، بل غيرهم[3]. قلنا: الأنبياء، قال: حق لهم، بل غيرهم، قلنا: الشهداء، قال: هم كذلك، وحق لهم، بل غيرهم. ثم قال رسول الله: أفضل الخلق إيمانا قوم في أصلاب الرجال، يؤمنون بي ولم يروني، يجدون ورقاً فيعملون بما فيه، هم أفضل الخلق إيماناً[4].

ونظـراً لأهمية الغيب والإيمان... اقتصر الرب على ذكره في مدحه

= ق 33؛ **مفاتيح الغيب**، 28/ 178، ق 33؛ القاسمي. **محاسن التأويل**، 15/ 5513، ق 33؛ الفيروزآبادي. **بصائر ذوي التمييز**، 4/ 152.

(1) الجرجاني. **شرح المواقف**، 3/ 527-528. وانظر: **تفسير ابن كثير**، 1/ 56. البقرة 2.

(2) ابن كثير. **تفسير ابن كثير**، 1/ 57، وقال: رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(3) المعنى: حق وواجب عليهم أن يؤمنوا لأنهم يشاهدون الغيب ويحضرونه، بل غيرهم.

(4) رواه أبو داود الطيالسي في **مسنده**، وذكر ابن عبد البر أحاديث متعددة في هذا المعنى محاولا الجمع بينها وبين خيرية القرون الأولى، في: **التمهيد**، 20/ 247 فما بعدها، حديث ثامن للعلاء بن عبد الرحمن. وكذلك أورد ابن كثير أحاديث أخرى في هذا الاتجاه في: **التفسير**، 1/ 57-58.

للمتقين في الآيات التي سبقت من أول البقرة. قال ابن عاشور: «خص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان، لأن الإيمان بالغيب ـ أي ما غاب عن الحس ـ هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله تعالى، فسهل عليه إدراك الأدلة. وأما من يعتقد أن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر، وهو ما وراء الطبيعة، فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة، كما كان حال الماديين وهم المسمون بالدهريين الذين قالوا: (مايهلكنا إلا الدهر)»[1].

(1) ابن عاشور، الطاهر. **التحرير والتنوير**، 1/ 230، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1988؛ والآية هي 23 من سورة الجاثية.

الفصـــل الأول

قيمة الغيـــب

حاجـة الإنســان إلى التديــن والإيمــان

من الحقائق الاجتماعية التي يذهل عنها بعض الناس -برغم استقرارها-: حاجة الإنسان إلى الاعتقاد والإيمان بالغيبيات أو بأشياء مجردة لاتنتمي إلى عالمه المادي المحسوس.

كونت... «النبي»

ولعل من أوضح الأمثلة على هذا الميل الفطري في الإنسان: فلسفة «أوجست كونت» نفسها. فهذا الفيلسوف الفرنسي أسس المدرسة الوضعية التي تقوم ـ بالدرجة الأولى ـ على الفصل بين العالم الظاهر للعيان وسواه من الأفكار والاعتقادات و«الغيبيات»، بحيث حصر العلم والمعرفة في دراسة الأشياء الظاهرة بغرض اكتشاف العلاقات القائمة بينها؛ في حين رد كل بحث في الأسباب البعيدة وحقائق الأشياء وما وراء الطبيعة... معتبراً ذلك مجرد ميتافيزيقيا عقيمة. ولذلك قسم «كونت» مراحل تطور الإنسانية إلى ثلاثة: الدينية، والميتافيزيقية، والعلمية.

لكن كونت ـ الذي أحسَّ بأهمية الدين في حياة الأفراد والمجتمعات ـ عاد فاقترح على الناس ديناً جديداً سمَّاه: «الإنسانية»، ووضع له كل التفاصيل التي جعلت منه ديانة حقيقية، وخلاصته أنه يجب أن نعمل لصالح كائن أعلى هو «البشرية»، وبذلك نضمن خلودها، وفي نفس الآن نضمن خلودنا نحن أيضاً عبرها.

هكذا بدأ كونت فيلسوفاً وضعياً، لكنه انتهى نبياً مبشراً[1]. وعلى خطاه سار مؤسسو الماركسية، فهذه الفلسفة استبدلت الدين الموحى به بديانة أخرى مصطنعة، فآراؤها حقائق علمية لا تناقش، فهي عقائد إذن، وتنبؤاتها لازمة، والمعبود هنا هو الدولة أو الطبقة العاملة، والحزب يجمع الكهنة الجدد وينظمهم. . . فكل العناصر التي تشكل أساس التدين توجد بهذه الفلسفة الخاصة[2].

نظرية لوبون

وقد عقد المفكر الفرنسي «غوستاف لوبون» لهذه الظاهرة فصلاً خاصاً في كتابه «علم نفس الجماهير»، بيَّن فيه أن القناعات الفكرية للجماعات ـ سواء في عصور الإيمان، أم في عهود التغيرات والانقلابات العامة ـ تحمل دائماً طابعاً خاصاً سماه بـ«الحس الديني»؛ وقد عرَّفه بخصائص واحدة ـ سواء كان موضوعه إلهاً أو إنساناً أو فكرة ـ وهي: حب كائن أعلى ومخافته والخضوع له، ومعاداة من أبى ذلك. ولذلك فإن المعتَقَد السياسي العام هو أيضاً يحمل في طياته عنصر «الغيبية». . . لقد ألّه الفرنسيون نابليون، ولا أحد مثله سَهُل عليه إرسال مواطنيه إلى ساحات الموت[3].

ويذكر لوبون أن المؤرخ دوكولانج -المتخصص في التاريخ الأوربي القديم- فسَّر نجاح الإمبراطورية الرومانية في السيطرة قرونا على مناطق واسعة من العالم المعروف آنذاك بكون الشعوب التي خضعت لها حوَّلت علاقتها بالإمبراطورية إلى نوع من الدين والاعتقاد، حتى قدَّسوا الأَباطرة واعتبروهم أشباه آلهة[4].

---

(1) راجع حول هذه «الديانة الجديدة»: كرم، يوسف. **تاريخ الفلسفة الحديثة**، مرجع سابق، ص327. Histoire de la philosophie 6/355. وهناك فلاسفة آخرون لهم موقف شبيه بهذا مثل: لوكريس، ونيتشه، وهيدجر. . . انظر: L'Au-Delà, p 9 à 14.

(2) انظر: البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، ص 371 فما بعدها، القاهرة: دار الفكر، 1991.

(3) La psychologie des foules, p 84-85.

(4) نقله لوبون في ص 86 عن كتاب: **بلاد الغال في العصر الروماني** لـ: Fustel de Coulanges صاحب الكتاب الكلاسيكي **المدينة القديمة**.

ويقول لوبون: رغم «لادينية» القرنين 19 و 20 الأوربيين، فإن هذا العصر لا مثيل له من حيث كثرة «الآلهة والأصنام والمعابد». ولذلك فالإلحاد نفسه لو نجح أحد في إقناع الناس به، لأصبح دينا[1]. إن عنف الثورة الفرنسية يجد تفسيره ـ يقول لوبون ـ في تحول فكرها إلى نوع من الدين واصطباغ أسسها السياسية والاجتماعية بصبغة اعتقادية ودينية قوية جدا[2].

الإنسان: كائن متدين

وهذه الحقيقة ـ أعني حاجة الإنسان إلى الإيمان بالغيب ـ ليست وليدة اليوم. لقد قال الفيلسوف اليوناني فلوطرخس ـ منذ ألفي عام ـ: «قد وُجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور.. لكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد». وبلغ من إيمان سكان بلاد الغال قديماً بالبعث أنهم كانوا يقترضون المال، بعضهم من بعض، على أساس ردِّه في عالم ما بعد الموت، كما كانوا يضعون الرسائل مع الموتى الجدد لإيصالها إلى أقاربهم الأقدم موتاً. أما في مصر ـ قبل خمسة آلاف سنة ـ فقد كان الاهتمام بما بعد الموت مسيطراً على الناس[3].

ولهذا رأى الفيلسوف الألماني هيغل أن التدين عنصر أساسي في تكوين الإنسان وجزء من ماهيته، بل الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون له دين. لذا اعتبر المفكر زكي نجيب محمود رحمه الله أن ما يصلح أن يكون مُميزاً للإنسان حقاً هو إدراك الربوبية في الكون وما وراءه، لذا يجب تعريف الإنسان بأنه: كائن متدين[4].

---

(1) La psychologie des foules, p 87. (أول طبعة لكتاب لوبون هذا كانت سنة 1895، وهو توفي في سنة 1931)

(2) La psychologie des foules, p 88.
من المفيد التنبيه على أن عنف هذه الثورة ودمويتها الفائقة ظلت ـ ولاتزال ـ مصدر حيرة الباحثين واختلافهم.

(3) L'Au-Delà, p 9, 25, 26.

(4) عن مقال: «الدين والعلم في فكر زكي نجيب محمود»، بمجلة **المسلم المعاصر**، عدد 69 ـ 70، ص 109.

الاعتقاد الغيبي: مجال لايحتمل الفراغ.

ولا يمكن قتل أو وأد هذا الميل الإنساني العميق الذي يشبه الغريزة، لهذا حين لايحقق الإنسان ـ لسبب أو لآخر ـ رغبته في التدين بطريق أحد الأديان الكبرى المعروفة، فإنه يلجأ إلى أشكال أخرى من الاعتقاد والتصديق الغيبي. مثال ذلك ما سجَّله الملاحظون اليوم من عودة الباطنية إلى العالم المعاصر، بمختلف أشكالها من قبلانية وإخفائية وتنجيم وكيمياء خفية... خاصة بالغرب. ويقول ڤيبر إن هذه العودة ليست أمراً عابراً، بل هي تَمَثُّلٌ للجانب الآخر في الإنسان غير العقل المنطقي، وهو ـ بتعبير الكاتب ـ العقل الأسطوري أو «الغيبي»[1]. وقد استقل هذا المجال ـ أي الباطنية أو الغنوصيات الحديثة ـ بكتب ومكتبات ومؤلفين ومجلات، وتعتبر «المكتبة الفلسفية الهرمسية» بأمستردام بهولندا من أهم المكتبات العمومية المتخصصة في الباطنية، وتضم حوالى أربعة آلاف عنوان[2]. وبهذا يظهر أن اعتقادات غيبية أخرى ملأت الفراغ الذي تركته المسيحية لما انحسر تأثيرها في الغرب، لأسباب تاريخية ليس هذا مكان بسطها.

دور الأسطورة

ولما كان الإنسان لا يحتمل الفراغ العقدي وجدنا شعوباً كاملة اتخذت من الأسطورة شبه دين. ومنها الإغريق، فهؤلاء قسموا الفكر الإنساني إلى قسمين، لكل واحد منهما مكانته ودوره: الفكر العقلاني المنطقي، والفكر اللاعقلاني الأسطوري. بل يرى بعض الباحثين أن أهم ما أضافه اليونان إلى الفكر الإنساني هو: الأسطورة[3]. وقد بيَّن دودس ـ الباحث الانجليزي المختص باليونان القديمة ـ هذه الناحية جيداً في الإنسان الإغريقي، وذلك في كتابه الكلاسيكي الشهير: الإغريق واللاعقلاني.

---

(1) في كتابه: L'ésotérisme, p 12.

(2) L'ésotérisme, p 124. وفي هذا الكتاب أهم التيارات الباطنية وأصحابها ومنظريها وكتبها ومجلاتها. انظر خاصة: p 120 à 123.

(3) انظر: La mythologie grecque, p 6-7,10 وتعد محاورات أفلاطون نموذجا لامتزاج هذين الفكرين: العقلاني والأسطوري، خصوصا: فيدون، وفيدروس، والمأدبة (Banquet).

وليس معنى هذا أن الإنسان بحاجة إلى الأسطورة بالذات، بل المقصود هو أن الحياة البشرية لا بد أن تتعلق باعتقاد غيبي ما، إن لم يكن ديناً، فهو باطنية أو أسطورة. . . أو نحو ذلك. ولهذا لوحظ أن الديانات السماوية لا تحتوي على هذا الكم المتنوع من الأساطير الذي نجده عند غيرها، فهذا الفكر الأسطوري لا يتلاءم معها[1]. وتفسير هذا في رأيي هو أن الإنسان لا يحتاج إلى الأسطورة في حدِّ ذاتها، بل إلى الإيمان مطلقاً، وحين يكون له دين ما فهو يغنيه عن سواه من الاعتقادات.

مثال معاصر: البوذية بأوربا.

واليوم تعتبر البوذية ـ خصوصاً في شكلها الأكثر قبولاً، أي المهايانا ـ إحدى أهم البدائل الروحية التي يلجأ إليها الإنسان الغربي، بل هي أخطر منافس لدين الإسلام في ديار الغرب، خاصة مع المجهودات الكبيرة لكثير من الدوائر، ومن أبرزها الصهيونية، والتي تحاول توجيه الغربيين الرافضين للمسيحية إلى اختيار البوذية، باعتبارها أفضل ما يوجد في الاعتقادات الآسيوية.

وقد وصل عدد ممارسي البوذية في الاتحاد الأوروبي إلى مليونين ونصف المليون إنسان، و بالولايات المتحدة يوجد ـ على الأقل ـ خمسة ملايين شخص من هؤلاء. وتعتبر فرنسا البلد الأوربي الذي يعرف أكبر انتشار للبوذية، فقد ارتفع عدد المعتنقين من 200 ألف سنة 1976 إلى 600 ألف سنة 1997، أكثرهم تحت لواء: الاتحاد البوذي لفرنسا، ولهم حوالى مائتي مركز ودير بفرنسا. وهذا بجهود أساتذة روحيين من لاما التبت، ومهاجرين من الكامبودج والفيتنام. . . ، والآن أصبح للبوذية دعاة فرنسيون من أبناء البلد. وتحظى البوذية هناك باعتراف الدولة، وتعد الاتجاه الروحي المفضل الثالث، وهي أيضاً الديانة الخامسة بفرنسا، وتضم أناساً من مختلفي الطبقات: من العاطلين إلى الأطر العليا بأكبر المؤسسات. ويقول الملاحظون: إن البوذية تملأ عند أصحابها من الفرنسيين الفراغ الروحي الكبير، وتحقق الحاجة الملحة إلى الهوية الواضحة،

---

(1) اقرأ: Eléments de sociologie religieuse, p 57, 63.

وإلى عزاء النفس وتهدئتها. . .[1].

إن تاريخ البشرية الطويل ـ وكذا تتبع أوضاعها الفكرية والنفسية اليوم ـ أمور تدل على أن الإنسان لا يحتمل الفراغ العقدي، وأن حاجته إلى الإيمان عميقة وقوية، بل هي تشبه الغريزة. . . ولهذا توقع بعض المفكرين ـ كالأديب الفرنسي موریاك ـ أن يكون القرن الحادي والعشرين قرناً دينياً.

دور الغيب في حياة الإنسان

ولذلك كان الإيمان بالغيب من أهم خصائص الإنسان التي تميزه عن المخلوقات الدنيا. فالغيب يصل الإنسان بالوجود كله، ظاهره وخفيه، ما يعلم منه ويبصر، وما لا يعلم ولا يبصر، فيربطه بالكون، بماضيه وحاضره ومستقبله، في تناغم وتوافق عميقين. يقول سيد قطب في هذا المعنى: «الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطوية في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول»[2].

---

(1) أخذت هذه المعلومات عن البوذية بالغرب من مقال بشهرية «العالم السياسي»
Alain Rénon: "La tentation" bouddiste en France. in: Le Monde diplomatique, décembre 1997, p: 29.

(2) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، 1/ 40، البقرة. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1967.

وإنما خص الله تعالى البشر بإعلامهم بالغيب وإخبارهم ببعض معالمه في الدنيا... لشرف النوع الإنساني ومكانته في الوجود، فهو الذي قبل الابتلاء وتحمل الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال. قال ابن القيم: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضَّله وشرفه، وخلقه لنفسه وخلق له كل شيء، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سماواته وأرضه، وما بينهما، حتى ملائكته ـ الذين هم أهل قربه ـ استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته وظعنه وإقامته... وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل اليه، وخاطبه وكلمه منه وإليه.. فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات»[1]. وقد كان من أهم الغيوب التي أخبرنا بها الوحي: قدوم الدار الآخرة.

حاجتنا إلى الإيمان بالآخرة

والآخرة عالم قادم لا شك فيه، فهناك تنتهي قصة الإنسان الذي تنكشف عن عينيه كل الحجب، فيبصر كل شيء... من الغيوب التي لا يصل إليها في دنياه. وإذا كان المنكرون يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3]، فإن القرآن يرد عليهم بأن الذي خلق الحياة والبشر أول مرة قادر على بعثهما من جديد، متى أراد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 26] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78 ـ 79].

لكن الاعتقاد في وجود الحياة الأخرى بعد الموت... ليس فقط من أركان الإيمان بالغيب، ومما يحتاج إلى إثبات واستدلال، بل هو أيضاً ضرورة أخلاقية، إذ في الآخرة تتم التفرقة بين الصالح والطالح، والمحسن والمسيء، ومجازاة كل واحد بحسب عمله واستحقاقه. أما الدنيا فليست بدار جزاء كما هو مشاهد معلوم. يقول صاحب المنار: «اعلم أن الحكماء الغربيين في هذا العصر قد بيّنوا في مباحثهم في طبائع البشر أن الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية

(1) ابن قيم الجوزية. **مدارج السالكين**، 1/ 210، القاهرة: دار التراث العربي، 1982.

ونظرياته العقلية وتسلل من وجدان الدين والإلهام الإلهي بالحياة الأخرى يكون أشقى من جميع أنواع الحيوان الأعجم. ويكون جل شقائه من نظرياته العقلية، فهو إذا فكر في هذه الحياة القصيرة التي تساورها الآلام الشخصية، من جسدية ونفسية، والآلام المنزلية (العائلية) والقومية والوطنية والدولية ـ يراها عبئاً ثقيلاً، ويرى من السخف أو الجنون أن يحمل شيئاً منها مختاراً لأجل زوجة أو ولد أو وطن أو أمة. ويرى أن الطريقة المثلى في الحياة أن لا يتعرض لألم من هذه الآلام، فلا يتزوج ولا يعمل أدنى عمل ولا يتكلف أدنى تعب لأجل غيره، وأن يطلب لذاته الجسدية من أقرب الطرق إليها، وينتظر الموت للاستراحة من هذه الحياة، فإن أبطأ عليه ونزلت به آلام يشق عليه احتمالها من مرض أو فقر مدقع أو ذل مخز فليبخع نفسه ويتعجل الموت انتحاراً.

كل فضائل الإنسان من الصبر على المكاره والجهاد في سبيل الزوجة والولد والأمة والوطن وإسداء المعروف وسائر أعمال البر، لا يبعث النفس عليها إلا الإيمان بالله وبالجزاء على الأعمال في حياة خير من الحياة الدنيا»[1].

والإيمان بالآخرة هو مفرق الطريق بين صنفين من البشر: صنف يرى أن الدنيا مجرد مرحلة تمهد لما بعدها، وصنف يرى أن الحياة تنتهي بموت الإنسان. وفي هذا يقول سيد قطب بأسلوبه القوي المميز:

«الغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض. فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون. ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود. والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة، وقدر زهيد من النصيب الضخم، وفصل صغير من الرواية الكبيرة. ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب

(1) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 1/ 223-224، البقرة 23-24.

حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها. لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة؛ ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون. فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال. هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان، الخليفة في الأرض، المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله»[1].

هل هذا يعني أن ينصرف الإنسان عن أمور شهادته، ويتعلق بشؤون الغيب. . . . ويمارس نوعاً من الرهبانية الفكرية والروحية؟

الوسطية في الاهتمام بكل من عالمي الغيب والشهادة

أحسب أن من مقاصد الدين أن يقع توازن في اهتمام المسلم بين إيمانه بعالم الغيب وتعرفه على الغيبيات التي وردت فيها نصوص شرعية. . . وبين الاهتمام بعالم الشهادة وشؤونه، والذي هو المجال الأول للنشاط الإنساني.

لهذا فمن الخطأ الغلو في طرف على حساب آخر، فمن يعيش وكُلُّ همه أمور الشهادة ـ مما يدخل تحت سلطان الحواس ـ، ولا يتصل بعالم الغيب إلا نادراً. . . لا شك أنه مفرط، حيث لا يصدق عليه وصف المتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقهم به ربهم ينفقون.

وكذلك من يغالي في طلب الغيب، ويجعل ذلك كل همِّه. . . يوشك أن ينسى المهمة الأساسية للإنسان في هذه الحياة، وهي عمارة الأرض.

---

(1) قطب. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، 6/ 441، الروم 7.

ومن مظاهر الغلو الأخير كثرة اهتمام طوائف واسعة من المسلمين بعالم الجن وغرائبه، حتى شكى ذلك محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ، وتساءل إن كان الجن اختص بالمسلمين دون غيرهم من الأمم. إن الجن مخلوق حقيقي وموجود، لا شك في ذلك، قال ابن تيمية: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين...»[1] لكن هذا الاعتقاد في الجن ثانوي في الدين، ومن الخطأ حصر كثير من الغيب فيه، إذ أصول الغيب غير هذا، فهي: التوحيد، والآخرة، والنبوات. فالأصل ـ إذن ـ هو الإيمان بهذا الخَلْق المكلف، بحسب ما جاء به الوحي، وماعدا ذلك ففضول[2]، وفي الحديث: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[3].

وأظن ـ من جهة أخرى ـ أن سبب اهتمام المسلمين بموضوع الجن خاصة يرجع إلى غريزة فطرية هي حب العجائب. ففي أعماق كل إنسان ميل طبيعي إلى القصص الغريب وحكايات الخوارق. فهذا شيء لم يختص به المسلمون، لهذا وجد في كل الحضارات الكبرى الأدب الغرائبي والأسطوري، حيث تقوم شخصيات أخرى بأدوار الجن والعفاريت عندنا، ومنها: الآلهة، وأنصاف الآلهة، والأرواح، والأشباح، والسِّلف، والتابع، والحورية...[4].

وفي عصرنا هذا جمع بعض العلماء بالغرب كل ما أمكنهم تسجيله من الظواهر الغريبة وغير المألوفة، وربما كان لبعضها علاقة بالغيب، ثم تفرغوا لدراستها وجعلوها علماً قائماً بذاته، هو: الباراسيكولوجيا. والحقيقة أنني ما كنت أحسب أن الغربيين أخذوا ظواهر «الغيب» مأخذ الجد واعتنوا بدراستها،

---

(1) ابن تيمية. **الفتاوى**، 19/ 9-10، الدار البيضاء: المكتب السعودي، 1984.

(2) انظر نموذجاً للبحث الكلامي في طبيعة الجن والشياطين في: المواقف، 2/ 693-699-700، وهو مثل يبين أن البحث في بعض شؤون الغيب كهذا الموضوع ليس وراءه كبير طائل.

(3) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، وحسّنه النووي في الأربعين.

(4) من نماذج الأدب الغني بالكائنات الخرافية: الأوديسيا المنسوبة لهوميروس.

بما في ذلك ما يسمونه الأرواح esprits، حتى قرأت لهم كتباً في الموضوع... فهالني ما وجدته عندهم من اهتمام وعناية، ومن كثرة العلماء الذين تخصصوا في هذا المجال، ومن وفرة في الإنتاج: إنتاج الكتب والمجلات والموسوعات... وإنتاج الأفكار والنظريات... فيما يشبه رد فعل على النزعات العقلانية المتطرفة التي سادت في القرن التاسع عشر.

وللعسكريين ـ ببعض الدول الكبرى ـ اهتمام خاص بقضايا عملية مثل: قراءة الأفكار، والتخاطر عن بعد ـ أو التليباثي ـ، والتنبؤ، وغسيل المخ الذي هو عبارة عن محو شبه تام لذاكرة الإنسان وتدمير لشخصيته... وهذه المسائل العملية جزء فقط من الباراسيكولوجيا الذي ليس له ـ في الأكثر ـ تطبيقات.

ومنذ زمان أتأمل القاعدة الشاطبية المعروفة: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي»[1]. إذ يُخيل إليَّ أحيانا أن الأمر أعقد من هذا، وأنه ينبغي أن ندرس جيداً غاية العلم في الإسلام، هل هي المعرفة أم العمل، أم كلاهما، وما هي العلاقة الحقيقية بينهما... وفي انتظار ذلك أنا مقتنع ـ من حيث المبدأ ـ بأنه لا يلزم في المجتمعات المسلمة إهمال أي حقل معرفي ولا أي موضوع مهما كان، وطريق هذا أن نعتبر كل معرفة ممكنة فرض كفاية على الأمة. هذا شأن نخبة محدودة من المسلمين، أما الجمهور فحقه أن يضع نصب عينيه الحديث العظيم الذي اعتبره بعض العلماء أحد أربعة أحاديث عليها مدار الدين: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

العقلانية المطلقة وخطرها على نمو العلم

أما هذا المبحث فبيان لقيمة الغيب وفائدته... حتى للنشاط العلمي للإنسان، حيث يؤدي الغلو في «التعقل المحض» إلى تعثر نمو المعارف.

---

(1) راجع: الشاطبي. **الموافقات**، مرجع سابق، المقدمة الخامسة، 1/ 42 فما بعدها. وأنا الآن في سبيل إعداد دراسة خاصة في هذا الموضوع.

أفكار سابقة في تأطير العلم

اعتقد ديدرو ـ وهو من أهم فلاسفة الأنوار ـ أن الرياضيات في عصره بلغت أوجها وانتهت، فلا توجد رياضيات ثانية ولا آفاق أخرى[1].

أما كونت فقد رفض الاعتراف بحساب الاحتمالات، وذم كل جهد علمي يبغي التعرف على أصل الكون أو تحديد المكونات الفيزيائية للنجوم. كما رفض أن تهتم الفيزياء بالبحث فيما يشكل المادة، وأدان كل نظرية في تطور الأجناس، وكل بحث انثروبولوجي عن الأصل التاريخي للمجتمعات[2].

وكل هذا التحديد الصارم لمجالات العلم كان لاعتبارات أيديولوجية وفكرية تبغي «توجيه» المجهود العلمي، وهي في ذلك متأثرة بعصرها، وبمدى تقدم المعارف في هذا العصر، وبطبيعتها، وبالوضع العام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري.

ولذلك ينبغي الحذر من وضع أطر للعلم تكون عبارة عن الحدود التي لا يُسمح له بالتطور خارجها. إنه لا ينبغي صب الفكر في قنوات محددة، وتجميده في قوالب نهائية، ضمن ما يزعم أنه قيادة للعقل وحماية له من الخطأ والزلل. وقد أثبت الزمن خطأ كثير من أفكار كونت وقواعده الموجهة للبحث العلمي. ولو أخذنا ـ مثلاً ـ بنظريته الابستيمولوجية في البيولوجيا ـ أو علم الأحياء ـ ما ظهرت «بيولوجيا الخلايا» أصلاً[3]، وهي من أهم التطورات التي عرفها هذا العلم في القرن العشرين.

وقد كان لبعض المفكرين وعي بما تشكله بعض الموجهات والأفكار العقلانية من خطر على تطور المعارف، منهم بيكون الذي بيَّن في كتاب «الأرجانون الجديد» كيف يصبح العقل أسيراً لنفسه، وذلك عن طريق ما أطلق عليه «أصنام العقل أو المعرفة»، ومن ذلك: التسرع في التعميم، و أثر العادة

---

(1) (ترجمة عنوان المرجع: تاريخ الفلسفة). Histoire de la philosophie، 5/232

(2) Histoire de la philosophie. ،6/332-333

(3) انظر: Histoire de la philosophie. ،6/345

والتربية، ومشكلة اللغة المستعملة، وتقديس آراء السابقين...[1].

ويمكن أن ندرج في هذه الأصنام الفكرة التي تعتبر أن منطقاً معيناً هو القادر لوحده على إنتاج المعرفة الصحيحة. وهذا مثلا حال المنطق الأرسطي الصوري، والذي ثبتت اليوم عرقلته لنمو العلم. وكذلك يمكن أن تشكل العادة أحياناً عائقاً لتطور المعرفة، وكذلك التقليد، أعني تقليد السابق.

ولهذا كان موقف كوندورسيه ـ في الموضوع ـ أقرب إلى الصواب من موقفي كونت وعصريِّه ديدرو... فقد بيّن أن العلم بحاجة إلى الحرية، وأن العقل لا يستطيع أبداً أن يصل إلى حد الإحاطة الكاملة بالطبيعة والوقوف على حدودها الأخيرة، ولذلك فالعلم بناء متواصل لا ينتهي أبداً[2].

سبل أخرى إلى المعرفة، غير العقل

العلم يحتاج إلى قدرات إنسانية أخرى غير العقل المحض، مثل الملاحظة والتجربة والخيال الواسع والحدس... وهذا ما تفطن له الفكر الغربي اليوم والذي أعاد اكتشاف هذه النواحي في الإنسان، ويمكن أن نذكر في هذا الصدد الكتاب الكلاسيكي لإريش فروم: «اللغة المنسية: مدخل إلى فهم الأحلام والقصص والأساطير». إن الكون والحياة عالمان معقدان ومليئان بالألغاز، وإن إدراك الوجود من حولنا هدف على كل قدراتنا أن تتعاون من أجله. وفي هذا الإطار نحتاج أيضاً إلى الوحي الذي يخبرنا عن نواح من الوجود لا نعرف عنها شيئا برغم كل ما حققه الإنسان من تقدم علمي وتقني.

ومن القضايا المهمة التي لا تزال تثير تعجب الباحثين ما عرفه عصر النهضة الأوروبي من فورة كبيرة في الاهتمام بكل ما هو «غير عقلاني»، من تنجيم وسحر وباطنية... وسائر الفنون الخفية... ويعتبر بعض الباحثين أن هذا الجو «اللاعقلاني» الذي طبع بداية النهضة كان إيجابياً، لأنه سمح بتجاوز الأطر التقليدية للفكر الوسيط الأوربي، حين اعتبر أن كل شيء ممكن وارد،

---

(1) Histoire de la philosophie, 4/41-42.

(2) Ibid, 5/232-233.

وبذلك مهّد لكوبرنيكوس وكبلر...[1].

العلم بين الإطار العقدي والتوجيه الابستيمولوجي

إن الذي يبدو لي ضرورياً باعتباره إطاراً للعلوم ليس هو الفكر الفلسفي الذي يؤدي إلى تجميد العلم في قوالب نهائية، ولا حتى التوجيه الابستيمولوجي الغالي[2]، كما هو عند كونت مثلاً... إن العلم بحاجة إلى إطار أخلاقي وعقائدي، يسمح لنا بالاستفادة من منجزاته دون أن تنقلب نجاحاته إلى أسلحة خطرة ضدنا. وتخبرنا العقيدة أن أسرار الله سبحانه في الوجود لا تنتهي: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109] وأن للخالق حِكَما في كل شيء: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 88] ولذلك كان الإنسان طالب علم للأبد: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. وفي الآثار: من قال أنا عالم فهو جاهل[3].

إن الكون كتاب مفتوح أمام الإنسان، الذي أُخبر أنه لن يكمل قراءته، لكنه مدعو للمحاولة الدائمة. وينبغي أن تكون الغاية خيِّرة تنفع البشرية ولا تضرها: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: 77]، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60].

الغيب وحدود العلم

إن أهمية الإطار العقدي للعلم ـ سوى ما تقدم ـ أنه يُثبِت «الغيب» باعتباره حداً للمعرفة، ويضع الأخلاق. وهذه العقيدة التي بمقتضاها توجد حدود للعقل البشري، وأنه لا ينبغي له أن ينفي عالم الغيب أو يحكم عليه... عقيدة إيجابية، وذلك لأن الاعتقاد في الغيب ينشئ في الإنسان شعوراً بسعة الوجود، وتنوع الموجودات، وأهمية العالم المجهول... وهذا له أثره في تشكيل

---

(1) (تاريخ الفيزياء) Histoire de la physique, p. 28 - 29.

(2) الغالي، من الغلو.

(3) رجح السيوطي أنه من كلام يحيى بن أبي كثير، من التابعين. كما في الحاوي للفتاوي، 2/ 45.

عقلية مرنة وغير ضيقة لها قدرة على تصور الوجود بأشكال مختلفة[1]. وبهذا تنفتح أمام العلم آفاق جديدة غير مسبوقة ولا محدودة.

ومن جهة أخرى كان الإسلام حريصاً على التمييز بين عالمي الغيب والشهادة، وتبيين حدودهما، ولذلك جاءت عقيدة الغيب ـ في هذا الدين ـ واضحة ودقيقة ومحددة، ليس لأحد أن يزيد فيها أو ينقص. وفي هذا حماية للعلم أيضاً، حيث لاحظ بعض الدارسين ـ كعالم الاجتماع الفرنسي بوتول ـ أن الاتساع الكبير لدائرة الغيبيات والمقدسات في المجتمعات الأولى كان من عوامل عرقلة المعرفة والإبداع التقني فيها[2]. ويمكن أن أُمثّل لهذا بالديانات الروحية التي ترى الروح في كل شيء من بشر وشجر وحجر... وهو روح شرير في الأكثر، مما أدى إلى خنق كل مجهود علمي لإدراك الوجود.

خاتمة

إن القاعدة في العلم وطلب المعرفة هي حرية البحث وتعدد المناهج وتنوع الرؤى والتصورات... ولذلك فمحاولات رسم طريق محدد للعلم لايعدوه تضرُّ به أكثر مما تنفعه. والإطار العقدي ـ الأخلاقي هو وحده ما يحتاجه العلم، خصوصاً في هذا القرن الذي يَعِد بخير كثير، ولكنه أيضاً ينذر بشر مستطير.

---

(1) راجع دراسة هنري كوربان عن الخيال عند المسلمين، من خلال نموذج التصوف.

(2) (العقليات، أو: أنماط العقول). Les mentalités, p 115.